"كان سابعَ ثلاثةَ عَشَرَ من أبناءِ أبيه، وخامس أحَدَ عشر من أشقّائه. وكان يشعر بأنّ له بين هذا العددِ الضخم من الشّباب والأطفال مكانًا خاصًّا يمتاز به من إخوته وأخواته. أكان هذا المكان يُرْضيه؟ أكان يؤذيه؟ الحقّ أنه لا يتبيّن ذلك إلا في غموض وإبهام، والحقّ أنّه لا يستطيع الآن أن يحكمَ في ذلك حكمًا صادقًا.

كان يحسّ من أمّه رحمةً ورأفة، وكان يجد من أبيه لينًا ورفقًا، وكان يشعر من إخوته بشيء من الاحتياط في تحدّثهم إليه ومعاملتهم له. ولكنّه كان يجد إلى جانب هذه الرّحمة والرّأفة من جانب أمّه شيئًا من الإهمال أحيانًا، ومن الغِلظة أحيانًا أخرى.

وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرّفق من أبيه شيئًا من الإهمالِ أيضًا، والازورارِ من وقت إلى وقت. وكان احتياط إخوته وأخَواته يؤذيه، لأنّه كان يجد فيه شيئًا من الإشفاق مَشُوبًا بشيء من الازدراء.
على أنّه لم يلبثْ أن تبيّن سببَ هذا كلِّه، فقد أحسّ أنّ لغيره من النّاس عليه فضلًا، وأنّ إخوته يستطيعون ما لا يستطيع، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له. وأحسّ أنّ أمَّه تأذنُ لإخوته وأخَواته في أشياءَ تَحْظُرُها عليه. وكان ذلك يُحْفِظه. ولكن لم تلبث هذه الحفيظةُ أن استحالت إلى حزنٍ صامتٍ عميق، ذلك أنّه سمع إخوته يصفون ما لا علم له به، فعلم أنّهم يرون ما لا يَرى".

إضاءة : فن السيرة الذاتية

السيرة الذاتية اسم لنوع أدبي قصصي يكتب فيه أحد المشهورين أو أصحابُ الخبرة أطرافاً من حياته الشخصية بأسلوب استرجاعي، أي من الماضي إلى الحاضر. وتتميز السيرةُ الذاتيةُ بأن المؤلفَ هو نفسُه الشخصيةُ الرئيسيةُ في القصة؛ فالمؤلف والشخصية والراوي الذي يقدّم الحكاية أو القصة هم في حقيقتهم شخص واحد. وبطلُ السيرة أو صاحبُها شخص حقيقي له وجود تاريخي، فطه حسين مثلا إنسان حقيقي، وهو في سيرة الأيام يتحدث عن طه حسين، أي عن نفسه وتجاربه ابتداء من طفولته المبكرة، ويتابع إلى المراحل التالية من الصبا والشباب بشكل متدرج منظّم. ويعرض أثناء ذلك لأحداث حقيقية أثّرت في نفسه وحياته، ولا يتخيل أو يخترع ما لا وجود له. ولذلك يلام كُتّاب السيرة إذا ما اخترعوا أموراً وأحداثاً لم تحصل، لأن ذلك قد يكون تزويراً أو تمويهاً للحقيقة.

نماذج من السيرة الذاتية في الأدب العربي:

مع أن مؤلفاتِ السيرة الذاتية قد اشتهرت في العصر الحديث، فإن لها جذوراً قديمةً في المكتبة العربية، ومن المؤلفات العربية القديمة التي تنتمي إلى نوع السيرة الذاتية:

- **كتاب: التعريف بابن خلدون ورحلتُه غرباً وشرقاً:** وهو عنوان سيرة عالم الاجتماع والمؤرخ العربي ابن خلدون الذي عاش في القرن الثامن الهجري، ألّفها بنفسه أواخر حياته وأطلق عليها هذا الاسم الدال الذي يشير إلى مراحل حياته في مغرب العالم الإسلامي ثم في مشرقه.
- **كتاب الاعتبار:** وهو سيرة أسامة بن منقِذ، الشاعر والأديب والقائد المرموق في عصر صلاح الدين الأيوبي وعصر الحروب الصليبية. وفي سيرته دروس وعبر مستفادة أراد أن يقدّمها للأجيال بعد أن رأى ما رأى، وعاش تجارب ثريّةً في حقبة تاريخية خطيرة في المشرق الإسلامي.

أما في **العصر الحديث** فتعدّ سيرة الأيام لطه حسين من أشهر ما يذكر في هذا المجال، وهناك سير أخرى تستحقّ القراءة مثل:

- **رحلة جبلية رحلة صعبة، لفدوى طوقان**، وهي سيرة الشاعرة الفلسطينية الراحلة فدوى طوقان. ومن عنوانها تستطيع أن تقدر أنها تعرض أيضا لوجوه أخرى من المعاناة والمواجهة مع الاحتلال الصهيوني، ومع المجتمع العربي التقليدي، وخصوصا في نظرته إلى تربية الفتاة وحقوق المرأة.
- **الشريط الأسود**، وهي سيرة الأديب الأردني الراحل عيسى الناعوري. ووقف فيها أيضا عند معوّقات وصعوبات كثيرة اعترضت طريقه، لكنه تغلّب عليها بالصبر وقوة الإرادة. واعتمد على ذاكرته في استرجاع أحداثها، وكأنها شريط أسود مؤلم، يتعافى من آلامه عبر إعادة سرده وقصّه.
- **الخبز الحافي**، وهي سيرة الأديب والروائي المغربيّ محمد شكري، روى فيها طفولته ونشأتَه في مدينة طنجة المغربية. ويعدّها النقاد أقربَ السير إلى ما يسمّى بالاعترافات لما فيها من جرأة في سرد أحداث الطفولة والشباب المبكّر.

إضاءة حول طه حسين (1889-1973م):

أما طه حسين مؤلّف هذه السيرة فهو من أشهر الأدباء والنقاد والمفكرين العرب في القرن العشرين. ولكنه قبل أن يحقّقَ ذاتَه ويغدو مشهوراً يشار إليه بالبنان، عاش تجاربَ قاسية، بسبب فقده البصرَ طفلاً في سنّ الرابعة. وإذا تذكّرنا نشأته أوائل القرن العشرين في قرية مصرية نائية في صعيد مصر، قبل أن يعي الناسُ كيفية الاهتمام بالأطفال غير المبصرين، قدّرنا فداحةَ مصابه. ومع كل ذلك فقد نجح طه حسين وحقق ما لم يحققه المبصرون، فحصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة، وكانت رسالته حول أبي العلاء المعري أول رسالة دكتوراه في تلك الجامعة العربية العريقة، ثم سافر إلى فرنسا، وحصل على شهادة دكتوراه ثانية، ومنذ عودته أوائلَ عشرينات القرن الماضي فقد غدا من أشهر أساتذة الأدب العربي في عصره، ومن أشهر المؤلفين الذين يقرأهم الناس حتى اليوم.

تولّى طه حسين وظائف هامة؛ فعُيّن أستاذاً للأدب العربي، وغدا فيما بعد عميداً لكلية الآداب في جامعة القاهرة، ولُقّب بعميد الأدب العربي، تعبيراً عن مكانته المرموقة بين الأدباء والمهتمين بالأدب، وعين منتصف القرن العشرين وزيرا للمعارف في مصر(التربية والتعليم العالي)، وإليه يعود الفضل في تثبيت مبدأ مجّانية التعليم الأساسي، وأنه حقّ من حقوق الإنسان الضرورية كالماء والهواء، وكان كذلك عضواً فاعلاً في مجمع اللغة العربية، إلى غير ذلك من الإنجازات الهامة.

ونظراً لآفة العمى فقد كان يملي مؤلفاتِه ومحاضراتِه إملاء، وكذلك فعل في كتاب الأيام. وقد تنوّعت مؤلفاتُه فكان منها: الدراساتُ الأدبية والنقدية والفكرية، مثل: حديث الأربعاء، ذكرى أبي العلاء، والشعر الجاهلي، ومستقبل الثقافة في مصر.. ومنها المؤلفات الإبداعية القصصية، مثل: دعاء الكروان، وشجرة البؤس، والمعذّبون في الأرض... ومنها مؤلّفات أدبية دينية استوحى فيها التاريخَ الإسلامي بأسلوب أدبي شيّق، ومنها: الوعد الحقّ، والفتنة الكبرى، وعلى هامش السيرة، وغيرها.

إضاءة حول كتاب الأيام

كتاب الأيام هو الكتاب الذي أملاه طه حسين مسترجعاً فيه أطرافاً من سيرته الذاتية، وكيفية تكوّن شخصيته ونضجها، مع ما أحاطها من معاناة وصعوبات ومعوّقات، وخصوصاً ما تسببت فيه آفة العمى وفقد البصر في حياته.

يقول طه حسين في مقدمة الطبعة الخاصة بالمكفوفين من كتاب الأيام:

"هذا حديث أمليته في بعض أوقات الفراغ لم أكن أريد أن يصدر في كتاب يقرؤه الناس، ولعلّي لم أكن أريد أن أعيد قراءته بعد إملائه، وإنما أمليته لأتخلّص بإملائه من بعض الهموم الثقال والخواطر المحزنة التي كثيراً ما تعتري الناس بين حين وحين".

وكأنه يشير إلى محاولته أن يتخلّص من ذكرياته المحزنة من خلال استعادتها وسردها مجدداً، تماما كما يفعل المرء عند الطبيب النفسي، فيكون الاعتراف أول سبيل للشفاء. ومن هنا نستذكر أهمية الاعترافات في فن السيرة الذاتية ووظيفتها الأدبية والنفسية.

ويقول أيضا في مقدمته: "والذين يقرأون هذا الحديث من المكفوفين، سيرون فيه حياة صديق لهم في أيام الصبا تأثّر بمحنتهم هذه قليلا قليلا حين عرفها، وهو لم يعرفها إلا شيئا فشيئا حين لاحظ ما بينه وبين إخوته من فرق في تصور الأشياء وممارستها. وقد تأثر بهذه المحنة تأثراً عميقاً قاسياً، لا لشيء؛ إلا لأنه أحسّ من أهله رحمةً له وإشفاقاً عليه، وأحس من بعض الناس سخرية منه وازدراء له، ولو قد عرف أهلُه كيف يرعونه دون أن يُظهِروا له رحمةً وإشفاقاً، ولو قد كان الناس من رقيّ الحضارة وفهمِ الأشياء على حقائقها، بحيث لا يسخرون من الذين تعتريهم بعضُ الآفات..لو قد كان من هذا كله، لعرف ذلك الصبيُّ وأمثالُه محنتَهم في رفق، ولاستقامت حياتُهم بريئةً من التعقيد، كما تستقيم لكثير غيرهم من الناس".

أما العبرة الجوهرية التي يقدّمها الكتاب ممثلة في تجربة طه حسين فهي عبرة التفاؤل والقدرة على المقاومة، فبمقدور الإنسان –مهما تكن وجوه معاناته– أن يتجاوز العقبات التي تعترضه بالصبر والتحمل والتفاؤل ومقاومة اليأس والحزن، وبذلك يخرج من المواجهة قوياً ناجحاً متفوّقاً، وكما يقول طه حسين بلسانه: "الحمد لله على أن هذا الصبيَّ لم يستسلم للحزن، ولم تدفعْه ظروفه إلى اليأس، وإنما مضى في طريقه كما استطاع أن يمضي، محاولاً الخير لنفسه وللناس ما أتيح له أن يحاول الخير، وما أكثر الذين قهروا هذه المحنةَ خيراً مما قهرها، وانتصروا عليها خيراً مما انتصر عليها". فكأن طه حسين أراد من تجربته أن تكون مثالاً حيّاً للنجاح رغم المعوقات والمعاناة، وأن تكون نموذجاً مُلهِماً لمن أصيبوا بالعمى أو غيره من الآفات، وما أكثر وجوه النقص والمعاناة التي تعرض لنا في حياتنا حتى لو كانت حواسّنا مكتملة سليمة. والاعتماد في ذلك كله يكون بالإرادة القوية التي يتكئ عليها الإنسان مصمماً على بلوغ ما يريد، وسوف يجد حين ذاك سبيلاً للانتصار على التحديات والمعوقات التي تعترض طريقه، ويحقق في نهاية الأمر ما يريد.

المفردات والثروة اللغوية

سنقرأ جملا مختارة من النص، ونحاول أن نفهم معناها، مع التركيز على الكلمات المميزة التي تبدو محتاجة إلى شيء من التفسير والتوضيح. مثل هذه الوقفات عند كلمات وألفاظ مميزة، يساعدنا على زيادة حصيلتنا اللغوية، ويدفعنا إلى استعمال هذه الكلمات أيضا:

كلمة: احتياط

استعملها طه حسين في قوله:

1. كان يشعر من إخوته بشيء من **الاحتياط** في تحدّثهم إليه.

وكذلك في قوله:

2. كان **احتياط** إخوته يؤذيه، لأنه يجد فيه شيئا من الإشفاق **مشوباً** بشيء من **الازدراء**.

الاحتياط من الفعل: احتاط، يحتاط، احتياط، فهي إذن مصدر: احتاط. وهي تعني: حذر إخوته وانتباههم في تعاملهم معه، جاهدين في مراعاة اختلافه عنهم بسبب فقده البصر.

وبهذا المعنى أي معنى الحذر القول الشائع:

الاحتياط واجب

أي أننا ينبغي أن نأخذ بأسباب الحذر والانتباه تجاه الأمور التي نتوقع خطرها أو ضررها.

كلمة: مشوب

جاءت في الجملة الثانية التي مرت بنا منذ قليل في قوله:

كان **احتياط** إخوته يؤذيه، لأنه يجد فيه شيئا من الإشفاق **مشوباً** بشيء من الازدراء.

شاب، يشوب، مشوب

ومعنى مشوب في هذا السياق: مخلوط أو مختلط.

ومن استعمالاتها الأخرى لفظة الشوائب، نقول: هذا الماء ممتلئ بالشوائب، جمع شائبة، بمعنى قريب مما ورد، أي فيه أشياء مختلطة به. ونقول بالمعنى المجازي: هذا الأمر أو الكلام ليس فيه شائبة. أي أنه خالص سليم صحيح ليس فيه اختلال أو عيب.

وربما كانت لفظة (الشيب) ذات صلة بما مرّ، فهي تعني اختلاط الشعر الأبيض بالأسود، فلا يعود الشعر بلون خالص واحد.

كلمة: الازورار

- كان يجد من أبيه شيئاً من الإهمال **والازورار** من وقت إلى وقت.

الازورار: الابتعاد أو الميل عنه، وعدم إيلائه الاهتمام الكافي، كأنه يشعر أنه عبء ثقيل. وهو يريد أن يكون كما يبدو موضع الاهتمام كله، ولكن أنى له ذلك؟ في أسرة ممتدة كثيرة العدد، وفي بيئة فقيرة بالكاد يتوفر لأفرادها ما يأكلون، وربما كانت المعاناة والإهمال والازورار بدرجات، ولكنها تزداد في حالة طه حسين، ويزداد أثرها النفسي بسبب تلك الآفة المؤلمة التي مني بها صغيرا ورافقته طوال عمره.

كلمات: تأذن، تحظر، يُحْفِظ

- أحسّ أنّ أمه **تأذَنُ** لإخوته وأخواته في أشياء **تحظرها** عليه. وكان ذلك **يُحْفِظُه**.

تأذن: من إعطاء الإذن، بمعنى تسمح لإخوته بأمور تحظرها أي تمنعها عليه. وكان مثل هذا الفعل يثير حفيظته، أي يغضبه ويثيره ولا يرضيه. إنها مشاعر مؤثرة ما زالت تسكن وجدانه حتى

بعد سنوات طويلة من مفارقته لها، ونيله ما لم ينله أحد من أبناء أسرته الممتدة، بل وربما أبناء القطر المصري كلّه من مجايليه وأضرابه.

سنتوقف أكثر عند كلمة: **تحظر** بمعنى تمنع.

لاحظ أننا ننطقها ونكتبها بالظاء، انتبه إلى رسمها ولفظها، ولا تخلطها بكلمة قريبة منها: تحضر بالضاد بمعنى تجيء. حضر فلان أي قدم أو جاء، من حضر يحْضُر حضوراً. أما الكلمة التي وردت عند طه حسين فهي: حظر، يحْظُر، حظْر التي تعني المنع. ومن هذا المعنى قولنا: هذا شيء أو فعل محظور أي ممنوع. ومنها لفظة: حظيرة الماشية أو الأغنام، بمعنى المكان الذي تحبس وتمنع فيه.

انتبه أيضاً، فهناك لفظة قريبة منها لكنها مختلفة عنها هي كلمة: **حذِرَ**، بالذال، يحذَرُ، حذَراً. أي تيقّظ واستعدّ. ونقول للشخص الذي فيه هذه الصفة: حذِر، هذا إنسان حذِر. أي شديد التيقظ والاستعداد والانتباه والخوف من الوقوع في الخطأ. مثل قولنا: الحذر لا ينجي من القدر، وقولنا: هذا الفعل أو الأمر محذور، ولا تقع في المحذور، بالذال، بمعنى ما ينبغي أن تخافه ونبتعد عنه.

لاحظ أن اختلافاً بسيطاً قد يؤدي إلى اختلاف الكلمة واختلاف المعنى، ولذلك: احذر (بالذال) من الخلط بين هذه الكلمات:

حظَر (منع)

حضَر (قدم، جاء)

حذِر (استعدّ، تيقّظ، انتبه)

تدريبات الدلالة والثروة اللغويّة:

من طرق استذكار الكلمات وزيادة الحصيلة اللغوية اعتمادا على النصوص المقروءة محاولة الإتيان بالألفاظ المرادفة (أي المشابهة في المعنى)، وكذلك الإتيان بالأضداد (أي بالألفاظ المعاكسة في المعنى):

تدريب على الترادف:

هات الألفاظ المرادفة أو المشابهة في المعنى لكل مما يأتي:

الكلمة	المعنى
يأذن	
فضْل	
يحْظُر	
يؤْذي	
مشوب	

التّدريب الثّاني: هات الألفاظ المعاكسة (الأضداد) لكل مما يأتي:

الكلمة	الضد
يرضي	
مشوب	
الازدراء	
يستطيع	
الغِلْظة	

القضايا اللغوية : التوابع / العطف

مفهوم العطف

يُقَصدُ بالعطف في النّحو إتباعُ لفظٍ لآخرَ بواسطة حرف، ففي تركيب العطف يوجد تابع يتوسّط بينه وبين متبوعه حرف من حروف العطف لتؤدي جملة العطف معنًى خاصًّا. وهذا يعني أنّ تركيب العطف يتضمّن: المعطوف عليه وحروف العطف والمعطوف، ثمّ المعنى المستفاد من التّركيب.

في الجملة: عُدّةُ الأديب لغةٌ وفكرٌ. نعدّ لفظة (لغةٌ) هي المعطوف عليه، و(الواو) حرف العطف، و(فكرٌ) المعطوف. والمعنى المستفاد هو المشاركة.

وما دامَ العَطفُ من التوابعِ، فإن المعطوفَ يَتْبَعُ في إعرابِهِ المعطوفَ عليهِ رفعًا ونصبًا وجرًّا.

حروف العطف ومعانيها:

الواو: تُفيد الاشتراكَ في الحُكْمِ بين المعطوفِ عليه، مثل: نجح سامرٌ وسعادُ.

الفاء: تفيد التّرتيب مع التّعقيب، ومعنى التّعقيب: قِصَرُ المُهْلَةِ الزَّمنيةِ التي تَنقضي قبل وقوعِ المعنى على المعطوف عليه، مثل: حضر أحمدُ فعليٌّ.

ثمّ: تُفيدُ التّرتيبَ مع التّراخي في الزّمن، وهو انقضاءُ مُدّة زمنيةٍ طويلةٍ بينَ وُقوع المعنى على المعطوف عليه ووقوعهِ على المعطوفِ، وتقديرُ المُدّةِ الزمنيةِ الطويلةِ متروكٌ أيضًا لِلْعُرْفِ الشّائع، مثل: دَخَلَ الفتى الجامعةَ ثُمَّ تخَرّجَ فيها.